الفصل السابع

علوم البلاغة التقليدية
و صلتها بعلوم اللغة فى التراث

obeikandl.com

obeikandl.com

صلة علوم البلاغة التقليدية
بعلوم اللغة فى التراث(*)

علوم البلاغة التقليدية بفروعها المختلفة(١) امتداد لمباحث لغوية وقد جاءت فى التراث وكما عرض لها اللغويون العرب جزءاً من الدراسة اللغوية.

وكتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة معمر بن المثنى كان إنطلاقة دفعت كثيراً من الباحثين إلى مسارات متنوعة من البحث انتهت إلى ما عرف بعد بعلوم البلاغة.

فقد عالج أبو عبيدة فيه كيفية التوصل إلى فهم المعانى القرآنية باجتذاء أسالب العرب فى الكلام وسننهم فى وسائل الإبانة عن المعانى، وقد أفاض أبوعبيدة فى كتابه فى التمثيل بمأثور القول من منثور كلام العرب ومنظومهم فإبان أبو عبيدة كل ما يحتاج إلى بيان من القرآن الكريم مستعيناً بما يحفظ من غريب اللغة وشاردها متخذاً من ذلك شواهد على صحة فهمه.

وقد كان المسلمون فى تلك الآونة فى حاجة إلى منهج بيانى فقد كانت الحاجة لمنهج البحث البيانى ضرورة يحسها المسلم لفهم معانى القرآن ولا يتم هذا الفهم إلا بتعرف أساليب القرآن وما ينطوى وراء تعبيراته من المعانى والمقاصد، يقول ابن خلدون «إن البيان كان من العلوم التى غرسها المسلمون فى سبيل فهم كتابهم والذود عن قراءتهم وكان نماؤه بعد ذلك وتشعب مباحثه بتأثير الدين وبتوجيه المفكرين من حملته ورجاله»(٢).

(*) الدراسة هنا دراسة نماذج وأمثلة وليست دراسة إحصائية استقصائية وإلا احتاجت مصنفاً بأكمله ربما من عدة أجزاء.

(١) المقصود بالمنهج البيانى أى المنهج اللغوى آخذاً من قوله تعالى (علمه البيان) أى الإبانة باللغة. وتطورت دلالة هذا المصطلح ومفهومه إلى ما هو معروف الآن بعلم البيان لدى البلاغيين.

(٢) المقدمة، ص ٥٤٥.

obeikandl.com

ولقد اتخذ كتاب تأويل مشكل القرآن الذى كتبه أبو محمد عبدالله ابن مسلم بن قتيبه (المتوفى سنة ٢٧٦هـ) نفس الإتجاه فأراد أن يوضح كيف أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها فى الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد والإشارة إلى الشئ وإغماض بعض المعانى حتى لا يظهر عليه إلا اللّقن، وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفى(١).

وقد أورد ابن قتيبة لكل آية فيها شبه أو عبارة فيها خفاء، الأمثال والنظائر من مأثور القول عند البلغاء والفصحاء الذين شهد لهم بالتمكن فى اللغة شعرها ونثرها وبرهن بذلك على أن هذا الأسلوب من النظم القرآنى ليس بخارج على الأسلوب العربى وليس بغريب على المفوهين أصحاب اللسن والحجة من العرب.

ومن المجازات فى الكلام عنده : «الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع والجمع خطاب الواحد والواحد والجمع خطاب الإثنين والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص وبكل هذه المذاهب نزل القرآن(٢) وكلها مباحث لغوية وتعد اللبنة الأولى فى بناء صرح علم المعانى الذى هو علم التراكيب ومهدت لما عرف فيمابعد لدى البلاغيين بعلم المعانى وهو ما يعرف لدى اللغويين بعلم (Syntax) وهو الذى وضع أسسه فى التراث عبدالقاهر الجرجانى ونشير إلى بعض الأبواب التى يستحسن الرجوع إليها مع بعض إشارات منها.

---

(١) البيان العربى، ص ١٢.

(٢) أنظر : تأويل مشكل القرآن لإبن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر. أنظر : أيضاً البيان العربى (السابق).

باب المقلوب : وهو أن يقدم ما يوضحه التأخير ويؤخر ما يوضحه التقديم ومن الأمثلة عليه قوله تعالى : ﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما﴾.

(أنزل الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا).

كما أورد باباً فى الحذف والاختصار. وباباً لتكرار الكلام والزيادة فيه. وباباً سماه مخالفة ظاهر اللفظ معناه (ويقصد هنا الغرض البلاغى الذى يتلاءم مع طبيعة الموقف والحدث اللغوى بتعبيرنا اليوم).

كما عرض للمترادف، وفسر حروف المعانى ودخول بعض الحروف مكان بعض وهكذا مما يعد من المباحث اللغوية.

وكان غرضه من هذا كله بيان أن القرآن الكريم نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها فى الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد والإشارة إلى الشئ، وإغماض بعض المعانى حتى لا يظهر عليه إلا اللقن وإظهار بعضها وضرب الأمثال لماخفى.

أما كتاب تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى(١) فقد تتبع نفس المسار يقول عنه محققه : «إننا نجده بجانب ذلك قد خدم اللغة خدمة لا ينتظر صدورها إلا من مثل الشريف الرضى فى علو كعبه وثبوت قدمه فى لغة العرب فهذا الفيض الغزير من العبارات الفصاح والألفاظ اللغوية والتراكيب التى جرت من العربية فى الصميم والاستعمالات التى صح ورودها عن العرب الفصحاء البلغاء هذا الفيض الفياض من الذخيرة اللغوية الحية فى الأمثال والتراكيب قد فاض به (تلخيص البيان)

(١) ولد الشريف الرضى سنة ٣٠٩هـ وتوفى سنة ٤٠٦هـ.

وكتاب تلخيص البيان فى مجازات القرآن حققه وقدم له بمقدمة تناول فيها مجازات القرآن عند أبى عبيدة والجاحظ وابن قتيبة والشريف وترجم للشريف وصنع فهارسه الأستاذ محمد عبدالغنى حسن.

فيضانا كانت مظنته فى كتب اللغة لا فى مجازات القرآن»(١) فمباحثه فى كلا المفهومين بالمفهوم التقليدى أوالتجديدى من مباحث علوم اللغة.

كما أن الشريف الرضى قد أورد فى كتابه هذا كثيراً من الآيات على قراءات غير القراءة المتداولة فى المصحف العثمانى وهى قراءات صحيحة غير شاذة للأئمة السبعة المروية قراءتهم بالقوائم وهم :

ابن عامر المتوفى بدمشق سنة ١١٨هـ.

ابن كثير المتوفى بمكة سنة ١٢٠هـ.

عاصم بن أبى النحود المتوفى بالكوفة أو بالسمادة سنة ١٢٧هـ.

أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ.

حمزة بن حبيب الزيات المتوفى بحلوان سنة ١٥٦هـ.

نافع بن عبدالرحمن المتوفى سنة ١٦٩هـ.

الكسائى المتوفى سنة ١٨٩هـ.

وقد قصر الشريف الرضى دراسته فى هذا على البحث فى مجازات(٢) القرآن أى فى الألفاظ المستعملة فى غير ما وضعت له وكل كتابه فى هذا.

كما كانت صحيفة بشر بن المعتمر وهو أحد أئمة المعتزلة (المتوفى سنة ٢١٠هـ) والتى تناول فيها بعض القضايا التى لمسها لمساً سريعاً ولكنه فى غاية الأهمية لأنه وضع المبدأ اللغوى المشهور الذى يتخذ الأساس

(١) مقدمة تلخيص البيان فى مجازات القرآن للأستاذ محمد عبدالغنى حسن، ص ٢٧.

(٢) أنكر الظاهرية المجاز فى القرآن وابن القاص من الشافعية وابن خويز منداد من المالكية، وشبهتهم أن المجاز غير الحقيقة فهو كذب والقرآن منزه عن الكذب، كما أن المتكلم لا ينصرف عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة أو عجز عن التعبير بها فيستعير وذلك محال على الله القادر المنزه عن العجز. وقد رد ابن قتيبة على هذا : «بأنه لو كان المجاز كذبا.. لكان أكثر كلامنا فاسدا».

الأول فى دراسة المعنى اللغوى وهو مبدأ (مطابقة الكلام لمقتضى الحال). والذى أفاض عبدالقاهر فى تبيانه فيما بعد وكان أحد الدعائم القوية فى دراسة المعنى اللغوى عنده(١).

أما كتاب سر الفصاحة لأبى محمد عبدالله بن سعيد بن سنان الخفاجى المولود سنة ٤٢٢هـ والمتوفى سنة ٤٦٦هـ فإنه يكشف فى أكثر من موضع عن علاقة مباحث البلاغة التقليدية بالدراسات اللغوية وفى كتابه هذا دراسات لغوية على مستويات مختلفة.

فقدجعل فى كتابه البحث فى اللغة على مستويات.

فالعمل اللغوى يتكون أمامه من عبارة وتركيب والعبارة تتكون من كلمات انضم بعضها إلى بعض والكلمة تتكون من مقاطع وكل مقطع منها يتكون من أصوات ثم يذكر نبذاً من أحكام الأصوات ويبين حقيقتها ثم يذكر تقطعها على وجه يكون حروفاً متميزة. ويشير فى غير إسراف إلى مخارج هذه الحروف وإنقسام أصنافها وصفاتها ما بين مجهور ومهوس وشديد ورخو. ثم يبين أن الكلام هو ما انتظم من هذه الحروف.

ثم يتحدث عن نشأة اللغة أمواضعة هى أم توقيف ثم يتخذ من اللغة شعرها ونثرها ما يبين مراده عن الفصاحة.

ويتحدث الخفاجى عن الفصاحة وهى كما يرى نعت للألفاظ وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم وجعل تلك الشروط قسمين :

الأول : منها فى اللفظة الواحدة على إنفرادها من غير أن ينضم إليها شئ من الألفاظ وتؤلف معه وقد استغل فيه الأصوات للدلالة على

(١) أنظر : عالم اللغة دراسة المعنى اللغوى الأساس الرابع. ص ٢٥٠.

معان خاصة وهو عمل هام من وجهة نظر البحث اللغوى ومنها.

أن تكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج وعلة ذلك عنده أن الحروف التى هى أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ولاشك أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت فى المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ويضرب عليه الكثير من الأمثلة ومن ثم يقول : وجل كلام العرب عليه.

ثم يقول عن حروف الحلق إن لها مزية فى القبح إذا كان التأليف منها فقط وأنت تدرك هذا وتستقبحه كما يقبح عندك بعض الأمزجة من الألوان وبعض النغم من الأصوات.

والثانى : أن تجد لتأليف اللفظة فى السمع حسناً ومزية على غيرها وإن تساوياً من التأليف من الحروف المتباعدة كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسنا يتصور فى النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه كل ذلك لوجه يقع التأليف عليه ومثاله فى الحروف عذب فإن السامع يجد لتلك الكلمة فى تصاريفها المختلفة ما لا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ فى التأليف وليس ذلك لبعد الحروف فى المخارج فقط ولكنه تأليف مخصوص مع البعد.

وقد يكون هذا التأليف المختار فى اللفظة على جهة الاشتقاق فيحسن أيضاً كل ذلك لوقوعه على صفة يسبق العلم بقبحها أو حسنها من غير المعرفة بعلتها أو بسببها ومن أمثلته كلمة تفاوح فى قول المتنبى :

إذا سارت الأحداج فوق نباته   تفاوح مسك الغانيات ورنده

يقول إن تفاوح كلمة فى غاية الحسن.

والثالث : أن تكون غير متوعرة وحشية..

والرابع : أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية.

وهذه الشروط ذات صلة قوية بمبادئ الدرس اللغوى وهو عدم الخلط فى المستويات اللغوية.

ومثله الشرط **الخامس** : وهو أن تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح غير شاذة :

أ) من التصرف الفاسد فى الكلمة.

ب) أو عبر بها عن غير ما وضعت له فى عرف اللغة.

جـ) وقد يكون إيراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل ومنه قول البحترى :

متحيرين فباهت متعجب ... مما يرى أو ناظر متأمل

فباهت جاءت على وجه شاذ فالعربى المستعمل بهت الرجل يبهت فهو مبهوت وهذا يدخل فى علم الصيغ وهو مبحث صرفى من وجهة نظر الدرس اللغوى.

أو صرف مالا ينصرف.

أو منع الصرف مما ينصرف.

أو قصر الممدود أو مد المقصور.

أو حذف الإعراب للضرورة.

أو تأنيث المذكر على بعض التأويل، أو تذكير المؤنث.

وكلها كما ترى مباحث لغوية تقليدية نحوية صرفية بالدرجة الأولى. وبعد أن يضرب الأمثلة على كل هذا يقول : إن هذا وأشباهه وما يجرى مجراه، وإن لم يؤثر فى فصاحة الكلمة كبير تأثير فإنه يؤثر صيانتها عنه.

obeikandl.com

وأما الشرط **السادس** : عنده فإنه يتصل بالمباحث اللغوية الاجتماعية بالمفهوم الحديث Sociology Linguistics وهو ألا تكون الكلمة قد غير بها عن أمر آخر يكره ذكره ومثاله قول عروة بن الورد.

قلت لقوم فى الكنيف تروحوا   عشـــــية بتنـــا وإن رزخ

والكنيف أصله السائر ومنه قيل للترس كنيف غير أنه استعمل فى الآبار التى تستر الحدث واشتهر بها. ومعناه كما نقول فى علم اللغة اليوم : أن الدلالة أصابها تطور نحو الانحطاط.

والسابع : أن تكون الكلمة مصغرة فى موضع عبر بها فيه عن شئ لطيف أو خفى أو قليل أو ما يجرى مجرى ذلك وفى الدرس اللغوى : هذا مما يتصل بالنسق والسياق معاً.

وبعد أن أوفى الحديث فى الكلام عن اللفظة المفردة انتقل إلى ما ينشأ من مجموع الكلمات وهو النظم الذى يتألف من تلك الكلمات.

وهو كما ترى اتبع منهجاً لغوياً، فقد اتبع منهج دراسة اللغة على مستويات مستوى الأصوات، ومستوى الصيغ، ومستوى التراكيب ثم المستوى الدلالى وما يتأثر به ويؤثر فيه.

وكل هذا يفيد أن مباحث البلاغة التقليدية مباحث لغوية أو هى جزء من الدرس اللغوى بالمعنى الذى نفهمه. وإن ما عرض له الخفاجى يعد ذلك من رأى للرمانى من أن التأليف عن ثلاثة أضرب :

١ - متنافر.

٢ - متلائم فى الطبقة الوسطى.

٣ - متلائم فى الطبقة العليا.

ورفضه له وجعله التأليف على ضربين : متنافر، ومتلائم فقط. وأنه قد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاؤماً من بعض، ومن رأيه أن إعجاز القرآن لا يلتمس من تلك الجهة.

ثم يتحدث عن الإعراب وصلته بالتأليف ويقول :

أما جريان الكلمة على العرف العربى الصحيح فإن للتأليف بهذا عُلقة وكيدة لأن إعراب الكلمة لتأليفها من الكلام وعلى حكم الموضع الذى وردت فيه وهذا المبحث متصل بالبناء اللغوى أى بعلم التراكيب (Syntax).

وأما كتاب بدائع القرآن لإبن أبى الأصبع (المتوفى سنة ٦٥٤هـ فهو من أثر الدراسات القرآنية فى هذه المباحث وقد جاء فى مقدمته :

«وهذا كتاب هو وظيفة عمرى وثمرة اشتغالى فى إبان شبيبتى ومباحثتى فى أوان شيخوختى مع كل من لقبت من الفضلاء ونبلاء البلغاء فى علم البيان وكل من له عناية فى تدبر القرآن ونقد ثاقب لجواهر الكلام» وذكر من الفنون قرابة المائة فن.

ومما كتبه فى إئتلاف اللفظ مع اللفظ وإئتلافه مع المعنى.

١ – أن تكون الألفاظ ملائم بعضها بعضاً بأن يقرب الغريب بمثله والمتداول بمثله رعاية لحسن الجوار والمناسبة.

وهذه النقطة هامة فى المباحث اللغوية حيث أنها تشير إلى أهمية عدم الخلط بين المستويات اللغوية. وإلى الدراسة اللغوية على مستوى اللفظ المفرد... إلخ

٢ – أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد وضرب الأمثلة لذلك من الذكر الحكيم. وهى نقطة هامة إذ أنها تشير إلى وجوب مراعاة

obeikandi.com

السياق ومقضى الحال ومقام الاستعمال وتلك من أهم النقاط فى دراسة علم المعنى.

ومن كل ما سبق نتبين حقيقتين هامتين :

١ - **أولاهما** : أن القرآن الكريم هو مفجر العلوم اللغوية فالقرآن نص لغوى أنتجت الدراسات فيه مباحث لغوية مختلفة مازالت لها أهميتها فى الدرس اللغوى التقليدى منه والتجديدى.

٢ - **ثانيهما** : أن الدراسات البلاغية التقليدية تربطها علاقة قوية بالدراسات اللغـويـة.

وأن موضوعات البلاغة التقليدية فى عمومها يمكن تفريعها فى الدراسات اللغوية على النحو الآتى :

المعانى : من نقاط البحث فى النحو بمعنى التراكيب والبناء اللغوى (Syntax)

البيان : المجاز بأنواعه يدخل ضمن علم الدلالة.

البديع : أكثره يدخل فى الدراسات الصوتية ذات الوظيفة الدلالية (Phonontylistics) .

فقد كانت الرغبة فى فهم أسرار إعجاز القرآن الكريم وإقامة الأدلة العلمية على إعجازه هى مفجر تلك المباحث.

وكل باحث منصف لا يمكن إن ينكر أثر امتزاج الثقافة العربية بغيرها من الثقافات فإن الحضارات التى سبقت المدنية الإسلامية لها أثرها فى كل تلك الدراسات وخاصة الحضارة الإغريقية. ولكنه أثر التثقف والابتكار إنه التمثل بعد الهضم الذى هو عنصر من البنية لحية يفيض منها وينبض بها.

وهو ما نراه واضحاً خاصة فى الدراسة البلاغية التقليدية وبنوع خاص عند الأعرجين الزمخشرى والسكاكى.

obeikandi.com